

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وإخوانه النبيين ودعاة الحق أجمعين، وبعد. فإن الأزهر قد قام بمهمته العلمية الدينية، وخصه الله تعالى بأعلى المكانة وأحسن القول؛ وصدق الله العظيم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٣٣﴾ سورة فصلت (الآية ٣٣) وصدق رسوله الكريم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» واحتل مكانته في العالم الإسلامي منذ تحمل تلك الرسالة في عهد صلاح الدين والعهود التالية حتى الوقت الحاضر، وأصبح المرجعية العلمية والدينية لأهل السنة والجماعة عن جدارة واستحقاق.

وما زال التاريخ يحفظ أسماء الأعلام من رجاله وخريجيه في سائر العلوم الدينية كالحافظ ابن حجر العسقلاني، وابن عابدين السيراسي التركي، والحافظ السيوطي الذين احتضنهم الأزهر على اختلاف أصول منشئهم، وبوأهم أعلى الأماكن وبلغ بهم أرقى مراتب الاجتهاد. ورسائل المسلمين. واستفتاءاتهم في أنحاء العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا ما تزال باقية مع إجاباتهم عنها إلى اليوم، وبها حافظ الأزهر على تلك المكانة في عصور العهد التركي، وبقيت القاهرة بفضلهم عاصمة ثقافية للعالم العربي بل للعالم الإسلامي. وبالرغم من ضيق نطاق الحركة الثقافية فقد لمعت أسماء اللقاني، والدردير، والأمير، والباجوري، والمناوي، والدمنهوري، والشرقاوي، والجبرتي، الذين

أدوا واجبهم وصار بعضهم أشبه بالزعيم الشعبى منهم بالمفتى الدينى المقتصر على مهمته الدينية فحسب. وقاد العلماء حركة المقاومة ضد نابليون وحملته الاستعمارية واستشهد منهم الكثيرون حتى دخلت الخيل الأزهر ولكن الغزاة اضطروا للرحيل بعد أقل من ثلاث سنوات.

فلما جاء محمد على كان عمر مكرم وإخوانه عوناً له، ومع أنه حاول الاعتماد على بعض العناصر والمؤسسات الأخرى إلا إن أكثر البارزين فى مجالات الهندسة والطب والثقافة كانوا فى الأصل أزهريين، وأسوا لحياتنا المعاصرة وللنهضة التى انتظمت المجالات المختلفة فى العهد العلوى، ويكفى ذكر أسماء العطار، والطهطاوى والزعيم الوطنى عربسى، وعبد الله النديم، والإمام محمد عبده وكلهم أزهريون قادوا النهضة الفكرية والوطنية وبدلوا النفس والنفيس فى سبيل الله والوطن. وكان العلماء الشهداء فى مواجهة المحتل الإنجليزى امتداداً لإخوانهم الذين قتلهم المحتل الفرنسى من قبل، وتوطئة لشهداء ثورة ١٩ الذين أكدوا مكانة الأزهر فى قلب الحركة الوطنية التى قادها الأزهرى سعد زغلول تلميذ الشيخ محمد عبده، وصار مسجد الأزهر مثابة للثوار من جديد، ومنبر الوطنيين من مسلمين ومسيحيين، وهذا هو قدر الأزهر ورجاله على رغم تضيق بعض الحكام عليهم وتهميشهم لهم..

ولكن الذين عاشوا خارج مصر يعرفون مكانة الأزهر فى العالم وأن منهم رجاله الذين يمثلون الوسطية للإسلام ودعوته على هدى وبصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة موضع التقدير والترحيب من العالم أجمع.

وفى القرن الأخير كانت القيادة بعد الشيخ محمد عبده للشيخ سليم البشرى والظواهرى ومحمد شاکر ومحمد بخيت وأنراغى ومصطفى عبد الرازق وعبد المجيد سليم وأبى العيون ثم بعد ثورة ١٩٥٢ للشيخ الأكارم عبد الرحمن

تاج والخضر حسين ومحمود شلتوت وعبد الله دراز وعبد الحلیم محمود الذين ازدانت بهم مصر والعالم ولن يلبث أن يعقبهم أبناؤهم المجاهدون كشجرة تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

استوعب الدكتور سعود- أسعده وأسعد به- هذا التاريخ العريق، وعایش مواكب الشهداء والمجاهدين، وتابع حياة هذا المعهد الشريف ورجاله الأبرار، وشيوخه الكبار، وسجل مواقفهم في كل هذه العصور، ومشاركتهم الشعب بل قيادتهم له في أيام الهول والمحن، وذاقوا طعم الموت والنفي والمطاردة في سبيل الحق والمثل العليا بل لم يفته موقف الأزهريين من غزوة فريزر الفاشلة في مطلع القرن التاسع عشر.

والدكتور سعود هو أستاذ بجامعة عين شمس، فليس بالأزهرى ليرمي بالتعصب أو المبالغة والانحياز، لكنه مثقف مصرى يفيض وطنية وإيماناً بمزايا هذا الشعب المؤمن الذي قدر الله له أن يظل في رباط إلى يوم القيامة، فحفظ في ضميره ذلك الدور الرائع للعلماء المجاهدين في صدارة هذا الشعب، وفي قلب الأحداث الدينية والوطنية التي مرت به، وحاول تسجيله موضوعياً في هذا الكتاب.

ربما يكون الدكتور سعود قد أفاض أكثر من المتوقع في الكلام عن توجهات ثورة يوليو أو بالأحرى قائدها جمال عبد الناصر الذي تراوح موقفه من الإسلام بين عناية وإهمال، واستعانة وإغفال، ولكنه بسياسته العملية وقراراته الاشتراكية في تأمين أوقاف الأزهر، وكانت معتمدة في الاستمرارية التاريخية، وفي إصداره قرارات القضاء الشرعى وتوحيده مع القضاء المدني دون إعداء علمى أو عملى، ثم إصداره في ليلة واحدة من مجلس الأمة الموحد

قوانين تطوير الأزهر- التي مهما حسنت فيها النية- كانت إملأً علويًا لا تطورًا أزهريًا طبيعيًا، ويبين كيف حدّت هذه الإجراءات من استقلال العلماء وقلصت عمليًا دور الأزهر، ولم تحقق الهدف المثالي وهو تخريج الداعية الطبيب والمهندس الذى يعيش فى غابات إفريقيا ومجاهل استراليا داعيًا إلى الإسلام كما يفعل المبشرون بالأديان الأخرى. لقد كان الهدف من التطوير إعطاء الدولة سيطرة أكبر. وهو الأمر الذى أحسن به الأزهريون من بعد، وقاوموه فى صمت، ولكن الشيخ عبد الحلیم محمود حاول عمليا الحدّ منها، واستخدم الشعور الشعبى ومكانته الخاصة فى توسيع دائرة المعاهد، وتعظيم الوجود الأزهرى فى الحياة المصرية.

على أن الدكتور سعود لا يغفل أن يسجل مواقف العلماء الذين أيدوا قوانين التطوير بل أشادوا بها وكيف أن عبد الناصر شخصيًا لم يقصر فى دعم الأزهر ماليًا، وتوفير الميزانيات الكافية لهيئاته المختلفة. وإن كان يقارن بينه وبين موقف محمد على من قبل فى دوره المزدوج من الأزهر والأزهريين فى استخدامهم لصالح النظام والحد من نفوذهم فى الوقت نفسه؛ وليخلص إلى رأيه فيما انتهى إليه أمر هذا التطوير فقد تضاءلت فى ظله حرية الأزهر واستقلاله.

وبعد أن يبين المؤلف التغيير الذى طرأ على الأوضاع الأزهرية فى عهدى الرئيس السادات والرئيس مبارك يخصص المؤلف الجزء الأخير من كتابه لشيوخ الأزهر منذ سنة ١٩٥٢م، مركزًا نوعًا ما على مواقفهم وآرائهم السياسية، ومنوهاً بوجه خاص بالشيخين عبد الحلیم محمود وجاد الحق وكيف تعاضم دور الأزهر الخارجى وتحرر أحيانًا من الموقف الرسمى، ويبين كيف انعكس كل أولئك على المعاهد الدينية التى شهدت توسعًا ملحوظًا،

وعلى جامعة الأزهر التي أصابت تطوراً عظيماً وعلى وجه الخصوص الطلاب الوافدين. ومن أن المؤلف الفاضل كان يتتبع الحياة الرسمية للأزهر وشيوخه في ظل العهود المختلفة فإنه ربما كان من المناسب - كما لاحظ فضيلة الشيخ مصطفى عمران في تصديره الجميل - أن يتعرض لشيخوخ كالذين أشرت إلى أدوارهم في مطلع هذه المقدمة ورفعوا لواء القرآن والدعوة، ولم يتولوا مشيخة الأزهر كالشعراوي والغزالي - رحمهم الله - وغيرهم كثير وهو ما تفضل المؤلف بالإلماح إليه في مطلع عمله.

ويعود المؤلف في ختام كتابه ليعترض مرة أخرى لقانون تطوير الأزهر وتفاوت الآراء حوله وحول الدوافع المؤدية إليه، ويسجل رأيه الشخصي فيما انتهى إليه القانون من الناحية العملية بصرف النظر عن الاعتبارات النظرية وهو رأى يميل إلى السلب.

لكن صدور الكتاب بالنسبة لنا كأزهريين، وبالنسبة للمشتغلين بالشأن الوطني، وبالشأن الديني في مصر، وشئون التعليم الديني بوجه خاص يعد من أشد دواعي الرضا والثقة في مستقبل هذه الجوانب الأصيلة في حياة هذا الشعب ومن دواعي الاطمئنان إلى واقع هذه المؤسسة العريقة بالغة التأثير في حياة العالم الإسلامي بوجه خاص والعالم بوجه عام ومن ثم فنحن نهنيئ الدكتور سعود بإصداره، داعين له بمزيد التوفيق في مسعاه الإصلاحية النبيل، وله من الله المثوية والأجر الجزيل إن شاء الله وهو سبحانه يقول الحق وهو يهدى السبيل.

بقلم أ. د/ حسن الشافعي

أستاذ بكلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية

توطئة

يمثل هذا الكتاب محاولة لرسم صورة مجملته لهذه القلعة العتيقة: الأزهر، ورجالها، منذ أقامها القائد جوهر الصقلي بعد فتحه مصر، إلى يوم الناس هذا، فتأثرت على مر العصور، تصاول الزمان وتجاوزته.

ونحن هنا لا نعنى بشيوخ الأزهر من تسنموا سدة الجامع فحسب، وإنما نعنى بهذه المفردة كل من درس وتخرج فى هذه القلعة الشامخة. وقد أدت هذه القلعة خدمات جليلة للإسلام والمسلمين فى كل أرجاء الدنيا، وبهذا غدت بالنسبة لأكثرهم - لا مريّة - أعز مكان دينى وأسماء بعد الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى.

وحاول كثير من الساسة استغلال القلعة. وهنا تتقاضانا الموضوعية، وبمنأى عن العواطف، أن نقول: إن كثيراً من رجالها وقف صامداً شامخاً، متعالياً على الترهيب والترغيب، لكن بعض رجالها لم يكن على نفس القدر من الصلابة، والشجاعة، والتسامى فى مواجهة الظغيان.

ولا أحسبنا نبالغ أو نتزيد إن قلنا إن الأزهر كمؤسسة لعب أخطر دور فى تاريخ مصر، بل وأكاد أقول فى تاريخ الأمة العربية. فيه تعلم أو تخرج زعماء الشعب ومصلحوه الخالدون: محمد عبده، وعمر مكرم، وأحمد عرابى، وسعد زغلول. فمنذ التاريخ السحيق كان لعلمائه الأفضاذ مواقف لا ينساها الزمان: فيها هو ذا العز بن عبد السلام سلطان العلماء فى زمانه، يقف من المالك موقفه الذى طبق الآفاق: فيصر على عرضهم للبيع، باعتبارهم ملكا لبيت مال المسلمين - حتى قيل عنه: بائع الملوك!

وحينما تنتفض مصر بقيادة أحمد عرابي الزعيم الريفي، وتثور بتوفيق، ويستصدر الخديو فرماناً سلطانياً بعزل عرابي من منصبه بالجيش، يلجأ عرابي إلى علماء الأزهر، فيصدرون فتوى بالعة الجراءة: «إن الخديو توفيق خائن لدينه ووطنه، وقد مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية!..!». وفي الحرب العالمية الثانية يقول الشيخ المراغي رحمه الله «إنها حرب لا ناقة للمسلمين فيها ولا جمل»، فيثير ثائرة الانجليز وأعوانهم.

وهذا هو الشيخ عبد المجيد سليم، غفر الله له، يقول كلمته التاريخية، قاصداً بها الملك فاروقاً في أسفاره، متعجباً: «تقتير هنا، وإسراف هناك!» وإذ يلوح له بعضهم بالعزل، فيقول: «أيمنعني ذلك من التردد بين بيتي والمسجد؟» قيل: «لا». قال: «فلا أبالي بعد ذلك بما يكون!».

وهذا هو الشيخ محمد الخضر حسين، رحمه الله، يقول كلمته المشهورة: «إن لم يزد الأزهر في عهدي، فلا ينقص منه!».

لكن الأمانة تلزمننا أن نقرر، كما قلنا، أنه كان هناك من الشيوخ من خالف عن هذه السيرة!

ولأن ما صلح بالأمس قد لا يصلح اليوم، وما يصلح اليوم قد لا يكون صالحاً للغد، فقد تناول المصلحون والسياسيون مواد الدراسة بالأزهر - كجامعة - بالتطوير غير مرة، وما زال التطوير اليوم مطلوباً، فليس معقولاً كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه: «رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد - بمناسبة الاحتفال بعيدة الألفية» أن يتخرج طالب في الأزهر لا يعرف زكاة الأسهم أو المصانع أو العمارات ونحوها، في حين يحفظ زكاة الإبل، وما فيها من بنت مخاض، وبنت لبون، وحققة. وجمدة وليس في بلده إبل سائمة قط! ولا يجوز أن يتعمق دراسة كتاب «الرقيق»

والعتق، وما يتبعه من أبواب: المدبر وأم الولد، والمكاتب ونحوها. وقد ألغى الرق الفردى كله. على حين يجهل أعمال المصارف (البنوك)، وشركات المساهمة، والتأمين، ونحوها. علينا أن نصل طالبنا بالواقع ونربطه بالحياة، على معنى أن ندرس حكم الشرع في واقعنا، لا في واقع من سبقونا، ونجيب عن الأسئلة التي يطرحها عصرنا، لا عن أسئلة طرحها من قبلنا، ولم يعد لها وجود بيننا.

وفي الحق إن العرض الكامل لموضوع الكتاب لا تفي به مجلدات ومجلدات، لكننى آثرت أن يكون حجم الكتاب فى متناول أغلب القراء، فحال ذلك دون الحديث- إلا من بضع عبارات متناثرة هنا وهناك عن مشايخ عظماء فى الطليعة منهم الأساتذة الأئمة: العز بن عبد السلام، سليم البشرى، محمود شلتوت، محمد عبده، حسن العطار، عبد الحلیم محمود، محمد الفحام، عبد المجيد سليم، محمد المراغى، رحمة الله عليهم.

وقد كان أكثر اعتمادنا فى هذا الكتاب على السفر الموسوعى الهائل بجزئيه: «الأزهر جامعاً وجامعة» للدكتور عبد العزيز محمد الشناوى، ثم على كتاب «الدين والدولة والثورة» للدكتور رفعت سيد أحمد، وكتاب «دور الأزهر فى السياسة المصرية» للدكتور سعيد إسماعيل على، وعلى «تقرير الحالة الدينية فى مصر» الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، واقتباسنا منها.

لكن كان من دواعى العجب والأسف أن وجدت فيما أورده «تقرير الحالة الدينية فى مصر» أخطاء معيبة فى تواريخ تولى بعض مشايخ الأزهر، يسهل جداً الوقوع عليها، فضلاً عن أخطاء فى بعض أسمائهم، بينما يورد التواريخ صحيحة، مبرأة من كل خطأ، لا تجد فيها عوجاً ولا أمتاً (!) مؤلف

أجنبي، لا سبيل إلى موازنة إمكانات المؤسسة الكبرى، هو بيارد دودج
BAYARD DODGE في كتابه :

«AL AZHAR: A MILLENNIUM OF MUSLIM LEARNING»

الذي نقله إلى العربية الدكتور حسين فوزى النجار، رحمه الله، وأصدرته
الهيئة المصرية العامة للكتاب في مجموعة الأعمال الدينية من مكتبة الأسرة
سنة ١٩٩٧.

وكانت أن ظهرت صورة أولية لهذا الكتاب قبل سنوات، لكنني زدت
هنا في أغلب فصوله، فكانت الزيادة في: صدر الخبر- الخلفية التاريخية:
الأزهر في العصر الفاطمي، الأزهر في العصر المملوكي، الأزهر إبان الحكم
العثماني، الأزهر في عصر محمد علي، الأزهر وثورة يوليو وما بعدها. وأضيف
إليه فصل جديد هو: موقف الأزهر من حملة فريزر على مصر.

وعلى الله قصد السبيل

محمد عبد العظيم سعود